

حقيقة العمل الإيجابي عند الإمام سعيد النورسي

بيّة سلطاني

المستخلص

مثلت الحداثة الغربية وما استتبعها من حربين عالميتين وحركة توسعية احتلالية صدمة للعالم الإسلامي الذي اكتشف تقهقره الحضاري وعجزه عن مواكبة سير التقدم التقني والاقتصادي التي شهدتها الأمم الغربية، فما كان من الدول القومية الناشئة عن تفكيك السلطنة العثمانية إلا محاولة ردم هذه الهوة، غير أن حركة الإصلاح ستكون أعنف ما يكون في مركز الخلافة حيث ستعرف السياسات اللانكية للدولة الكمالية القائمة على أنقاض العثمانيين قطيعة جذرية مع التقاليد الدينية والأعراف الشرقية، لقد قمعت الكمالية كل أشكال التدين وحضرت جميع أنشطتها لأصلتها بالنظام القديم، في خضم هذا الصراع نشأت دعوة بديع الزمان سعيد النورسي القائمة على إحياء الإيمان وخدمة القرآن، لينالها ما نال الطرق الصوفية وشيخ العلم من التصيبق والملاحقة، إلا أن الفكر النورسي سيميز عن غيره من مدارس الإصلاح الإسلامي بمفهوم مركزي قد يساهم في ترشيد مسيرها، ونعني بذلك مفهوم "العمل الإيجابي" الذي سيبرز هذا المقال أهم خصائصه وتمثلاته.

الكلمات المفتاحية: العمل الإيجابي، النورسي، بديع الزمان

* باحث في الدراسات العليا في جامعة الزيتونة تونس

*Postgraduate researcher at Al-Zaytouna University, Tunisia

E-mail:

beya.soltani@yahoo.com

Orcid:

<https://orcid.org/0000-0001-6713-5143>

Received: January 5, 2022

Accepted: July 14, 2022

Published: July 31, 2022

Citation:

Soltani, Beya, "The Reality of Positive Action According to Imam Said Nursi", Istanbul, The Journal of Risale-i Nur Studies 5:2 (2022), 57-71

<https://doi.org/10.5281/zenodo.6861646>

The Reality of Positive Action According to Imam Said Nursi

Abstract

Western modernity and their consequent of two world wars and an expansionist and occupying movement shocked the Islamic world, which discovered its civilizational regression and its inability to keep pace with the progress of technical and economic progress of Western nations. The reform movement will be the most violent in the center of the caliphate, where the secular policies of the Kemalist state based on the ruins of the Ottomans will know a radical break with religious traditions and eastern mores. Based on the revival of faith and the service of the Qur'an, in order to achieve what the Sufi orders and the Sheikh of knowledge have suffered from narrowing and persecution, the Nursi's thought will be distinguished from other schools of Islamic reform by a central concept that may contribute to rationalizing its path, we mean by that the concept of "positive action", whose most important characteristics and representations will be highlighted in this article.

Keywords : Positive Action, Nursi, Bediüzzaman

تمهيد:

مشروع الإصلاح عند النورسي في أفق السياق التاريخي

عرف العالم الإسلامي أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 ميلادي مرحلة كبيرة من الضعف نتيجة جسامه المحن التي ابتليت بها الأمة الإسلامية. تلك المحن التي تداخل نسيج أسبابها بين الذاتي ممثلاً في الأمراض المتشخصة في حياة المسلمين¹ وبين الخارجي ممثلاً في المخططات الهدامة لقوى الهيمنة الغربية التي سيطرت على العالم الإسلامي وفرضت التجزئة والتقسيم لتفتيت وحدته بعد أن أسقطت الخلافة العثمانية وكسرت معالم رمزيها في الوجدان الإسلامي الكوني بنشر ثقافة التغريب من خلال المشروع العلماني.

تحول العالم الإسلامي إلى حركة جهاد فكري بعد مراحل من الجمود والجهل والتخلف، فقد أدرك العلماء والمصلحون حجم مسؤوليتهم أمام التحديات التي تعيشها الأمة الإسلامية، فاجتهدوا في استنباط مقاربات عديدة في الإصلاح، مقاربات لئن تنوعت في مناهجها ومضامينها فإنها تتبع جميعاً من ذات المرجعية الدينية المؤسسة على نص الوحي قرآناً² وسنة. فقد استوعب هؤلاء المصلحون ما في الآيات القرآنية من تنبيه صارخ إلى ضرورة الإصلاح باعتباره من وجوه التكليف الإلهي، فالإنسان استخلفه الله في الأرض قصد تعميرها بـ"العمل الإيجابي"³ أي أن يعمل فيها صالحاً دون إفساد فقال تعالى "ولا تقسدا في الأرض بعد إصلاحها" (الأعراف: 56-85)، وقال عز وجل "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت" (هود: 88) وغيرها من النصوص القرآنية والنبوية الصريحة في الغرض.

وقد تضمن الإصلاح في الخطاب الإلهي معنى التغيير نحو الأفضل، ولذلك ظهرت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي لتقاوم مظاهر الفساد ولتعلم ما وسعها الجهد على "تحرير الإسلام والدفاع عن صورته بماهيتها الصادرة من منطوق كتابه المنزل العظيم وعن المقاصد والغايات العظمى المبينة فيه" (جدعان، 2014: 16)

¹ لقد تشكلت في أعطاف المجتمعات الإسلامية -وربما كانت في العربية منها أكثر دلالة وظهوراً- جملة من الأمراض لم تتجسد في التجربة التاريخية لإسلام البعثة. فقد اهتدى سلف الأمة إلى إفراغ الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل فأنجزوا حضارة دانّت لها الأمم. أما خلال العصر المتعّين فقد تعددت الأمراض وتنوّعت. أحصى منها بديع الزمان النورسي ستة هي الأخطر باعتبارها تحديات تعيق مشروع النهوض وكسب رهان المستقبل شأن الأمم التي تركت بصماتها فقال "لقد تعلمت في مدرسة الحياة الاجتماعية والبشرية وعلمت في هذا الزمان والمكان أن هناك ستة أمراض جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجناب وخاصة الأوروبيين نحو المستقبل": وهذه الأمراض هي اليأس، موت الصدق، حب العداوة، الجهل بالروابط النورانية، سريان الاستبداد، وحصر الهمة في المنفعة الشخصية. وقد اقتبس النورسي "من فيض صيدلية القرآن الحكيم أدوية معالجتها. (راجع النورسي الخطبة الشامية)

² جاء في مفردات الراغب "الصلاح ضد الفساد وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقبول في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة. وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحاً وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده. وتارة يكون بالحكم له بالصلاح."

³ "العمل الإيجابي" عبارة للنورسي استعملها مضموناً لدرس الفاه قيل وفاته على طلبة النور صدره بشرح وبيان وظيفة الإنسان في أفق الجماعة المسلمة فقال "إنّ وظيفتنا هي العمل الإيجابي البناء وليس السعي للعمل السلبي الهدام."

في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام والمسلمين ، كانت رسالة المصلحين كبيرة ومسؤوليتهم عظيمة لا من جهة تصديهم لمقاومة مظاهر الفساد و الضعف في واقع أمة مقهورة فحسب وإنما من جهة حفظ الدين باعتباره من المقاصد الإلهية العظمى . هذه الرسالة تصدى لها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فحملوا لواء مسؤولية الإصلاح والنهوض فأمكنهم حفظ دين الأمة الذي هو عهدة أمرها و "صونه من التعديتات والفهوم المغلوطة التي ولدت إساءات حقيقية له ولأهله" (جدعان، 2014: 17) في زمن تضاعفت فيه التحديات . و من بين هذه الكوكبة النيرة من المصلحين الذين ظهوروا في أنحاء العالم الإسلامي ، برز في تركيا علم يعز وجوده في ذلك البحر المتلاطم من المصائب ، إنه بديع الزمان سعيد النورسي الذي ذاع صيته و"انتشرت دعوته برسائله المسماة ب"رسائل النور" و"بجماعته "طلاب النور" الذين يتدارسون هذه الرسائل وينشرونها في آفاق الأرض" (النورسي، 2011: 5) .

إن سعيد النورسي - الذي تمتد آثاره اليوم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وغيره- هو رجل الإصلاح في تركيا الحديثة بلا منازع. فقد أنجز مشروعا عظيما لخدمة القرآن وإنقاذ الإيمان في سياق بلغ فيه واقع الأمة أوج مظاهر الضعف والجهل والتمزق نتيجة أسباب متداخلة نسجت قسوة تلك الأيام الحالكة وجعلت من النورسي بطلا يعز وجوده زمن المحن. فهو مفخرة الرجال المجاهدين الصادقين.

كان النورسي على درجة عالية من الوعي بأن الهجمة الاستعمارية التي تعرضت لها أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، مرورا بإسقاط الخلافة العثمانية وما تمثله من رمزية في وجدان المسلمين، ونشر مشروع المدنية الحديثة بدلا عنها، وصولا إلى الحرب العالمية الثانية وما خلفته من دمار، كآها تحديات تستهدف الإسلام عقيدة ومنهج حياة، وهي تحديات أذكتها الأمراض التي ابتليت بها الأمة والتي جعلتها تقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجانب نحو المستقبل " على حد عبارة النورسي.

عايش النورسي تلك التحديات وأدرك خطر أهدافها ومخططاتها فتصدى للإصلاح بالدرس والتوعية والتوجيه...سلاحه القرآن الكريم ومعينه سيرة النبي الأكرم. وفلسفته "العمل الإيجابي" من أجل "الخدمة الإيمانية" وهو ما جعله يحقق نجاحا كبيرا معنويا وماديا على المستوى المحلي والعالمي. فمن باب المسؤولية والاعتراف بالفضل لأهله أن يظل ذكر هذا البطل الهمام في النفوس دائما بما يسمح باكتشاف جوانب من عبقرية هذه الشخصية العلامة بفضل ما قدمت من جهود إصلاحية بناءة ومثمرة في حياة الأمة الإسلامية، والإنسانية قاطبة.

الإشكالية: بأي معنى فهم سعيد النورسي مفهوم "العمل الإيجابي"؟ وما هي جدوى هذه المقاربة النورسية؟ ويقتضي منهج العمل السير وفق عناصر فرعية أهمها:

- من هو سعيد النورسي؟

- ما هي حقيقة العمل الإيجابي الذي آمن به النورسي فكرا وممارسة؟ والذي شكّل ركيزة رؤيته الإصلاحية؟

- كيف كانت تطلعاته في مجتمعه وفي أفق العالم الإسلامي في ضوء فلسفة العمل الإيجابي من جهة وفي ضوء تحديات الواقع من جهة ثانية؟

(1) ترجمة النورسي:

تمثل حياة النورسي صفحات مشرقة جديرة بالتقدير، لا يتسع المجال لكل تفاصيلها لكننا نذكر منها ما بدا لنا محطات أكثر تميّزا:

(أ) مظاهر النبوغ المبكر

لقد قدّر لسعيد النورسي (1877-1960) -أحد مواطني الدولة العثمانية-، كما ترجم لنفسه - أن يكون متميزا منذ نعومة أظفاره إذ اجتمع في شخصه "الذكاء الخارق مع القابلية الخارقة للحفظ"، يشهد بذلك أساتذته والمقربون منه مثل الشيخ عبد الرحمان⁴ الذي أثر عنه اهتمامه الخاص بطلبة مدرسة نورس وعلى الأخص بسعيد الصغير، إذ كان يذكر ويردّد أن أحد هؤلاء الطلبة سوف يقدّم للإسلام خدمات عظيمة وسيكون مجددا للدين "(شاهين، 2012: 22/1) وقد صدّق القدر الإلهي هذه الرؤية وغيرها من مظاهر النبوغ العلمي والخلقي في شخصية الأستاذ ومن بين تلك المظاهر حادثة يذكرها الشيخ نظام الدين الأوراس⁵ متحدثا عن علاقة النورسي بوالده قائلا "لم يجد بديع الزمان من بين علماء المنطقة من يشفي غليله ويشبع نهمه إلى الحصول على العلوم والمعارف، جاء إلى مدرسة والدي الشيخ محمد جلالى ولما يتجاوز الرابعة عشر من عمره وذلك عام 1887. بقي لدى والدي ثلاثة أشهر يرتشف العلوم الدينية منه، بعد هذه المدة القصيرة اكتفى وأخذ يناظر ويناقش والدي... بعد ثلاثة أشهر من تحصيله العلوم قال له والدي لقد اكتفيت ولم يبق لدينا ما نقدمه لك".

وقد كشف بديع الزمان بنفسه مظاهر أخرى من نبوغه بقوله "لقد حدثت خيالي في عهد صباي: أي الأمرين تفضل؟ قضاء عمر سعيد يدوم ألف سنة مع سلطنة الدنيا على أن ينتهي ذلك إلى العدم أم وجودا باقيا مع حياة اعتيادية شاقّة؟ فرأيتُه يرغب في الثانية قائلا إنني أريد البقاء ولو كان في جهنّم" (النورسي، 2011: 56). كما أسهمت والدته في تشكّل معالم ذلك النبوغ الذي أسس لمراحل لاحقة من العطاء المثمر، يقول النورسي " أقسم بالله إن أرسخ درس أخذته إنمّا هو تلقينات والدتي رحمها الله ودروسها المعنوية حتى

⁴ الشيخ عبد الرحمان تاغي هو أحد رجالات العلم والإيمان في بلدة نورشين بولاية موش. وهو صاحب المدرسة المعروفة في تاغ. وهذه البلدة تلقى فيها النورسي خطواته العلمية الأولى. وتقع تاغ جوار نورشين وقرية نورس. توفي الشيخ عبد الرحمان عام 1886 ودفن في نورشين.

⁵ الشيخ الأوراسي هو ابن الشيخ محمد جلالى أستاذ بديع الزمان الذي ولد عام 1851 وتوفي عام 1914 في قضاء شيروان التابعة إلى ولاية سمرقند.

استقرت في أعماق فطرتي وأصبحت كالبدور في جسدي في غضون عمري الذي يناهز الثمانين رغم أنني قد أخذت دروساً من ثمانين ألف شخص ،بل أرى يقيناً أن سائر الدروس إنما تبني على تلك البذور"(النورسي، 2011: 65) وعموماً تميزت هذه المرحلة من حياة الأستاذ وكشفت "أن بديع الزمان شخصيّة ممتازة وعالم فريد قد ترعرع منذ صغره بشكل غريب تحت عناية إلهية فائقة" (النورسي، 2011: 39) نسجت من هذه الشخصية العظيمة ملاحم وبطولات في الإصلاح شهد بها التاريخ.

ب) بواعث العمل الإصلاحي البناء في حياة النورسي

كانت حياة النورسي بعد المرحلة الأولى حافلة بالعبء المثمر من وجوه عديدة ففكر وممارسة، كما كانت بالقدر نفسه محفوفة بالتحديات والصعاب الكثيرة، منافي وسجون وتهديدات لشخصه ولمشروع الإصلاح الذي قاده في تركيا بمعونة طلاب النور لذلك "ينبغي وضع تلك الأيام الحالكة القاسية الرهيبة نصب العين لدى دراسة دعوة النورسي وخدمته للقرآن والإيمان" (النورسي، 2011: 7). فقد ظهر النورسي في مرحلة فارقة من تاريخ الإسلام والأمة الإسلامية قاطبة والأمة التركية على وجه الخصوص ، إذ عاش فترات رهيبة: هول الحربين المدمرتين ، بلوغ السلطنة العثمانية مرحلة "الرجل المريض" ثم سقوطها نهائياً وظهور المشروع العلماني التغريبي بديلاً عنها بعد أن كانت تمثل القلب النابض للعالم الإسلامي لقرون طوال .كما أدرك أن القوى الغربية وخاصة الأوروبيين قد "طاروا نحو المستقبل" بما حققوه من إنجازات نوعية في المجال العلمي والصناعي وفي المقابل كان المسلمون "يقفون على أعتاب القرون الوسطى" عاجزين عن اللحاق بركب التقدم والرقي، فضلاً عن تزايد الأطماع الاستعمارية التي تستهدف تجزئة العالم الإسلامي وتمزيق جسد الأمة وتفقيته إلى كيانات قطرية كثيراً ما بلغت حد التنافر باسم الأقليات العرقية أو القوميات أو التنزاع المذهبي والطائفي. وقد قدر الأستاذ النورسي أن هذه النزعات القومية أحد الأسباب الموجبة لتأسيس مدرسة الزهراء(النورسي، 2011: 565).

لقد تشرب النورسي مرارة هذه الأوضاع لكنه لم يستسلم ولم يقبل بالواقع، وخلافاً لآمال الأعداء أمكنه - متسلحاً بالدفع الإلهي الذي استمد منه عزيمة نافذة لا تقهر وبفلسفة في العمل الإيجابي البناء استوحاها من القرآن ومن سيرة الرسول الأكرم - أن ينحت اسمه في دفاتر التاريخ الحديث كواحد من "أبرز أعلام النهضة الذين تصدوا للإصلاح والتجديد بعد إدراكهم للمخاطر التي يتعرض لها العالم الإسلامي بسبب المخططات الغربية الاستعمارية إذ قام بدوره الإصلاحي في التصدي ومواجهة المؤامرات ضد الإسلام ،فاتجه إلى البناء الداخلي لتحسين معازل المقاومة العقائدية والدينية والتربوية لدى المسلمين ضد سيطرة الكماليين الذين سلكوا منهجاً معادياً للدين (سويلم، 2010: 21-22). فما هي مميزات الرؤية الإصلاحية للنورسي أسساً ومقومات، وإنجازات عملية في أرض المعركة، وفي الأفق العابرة للمكان والزمان؟

(2) العمل الإيجابي ركيزة مشروع الإصلاح عند النورسي

تأمل النورسي واقعه فأدرك أن حياة المسلمين في تركيا كما في العالم قد بلغت من الهوان مبلغا خطيرا ورأى أن الفساد يسري في جسد الأمة سريان المرض العضال في الجسم المنهوك وأن "الإيمان يتعرض لهجمة شرسة تستهدف اقتلعه من نفوس الناس وأن القرآن مهجور عند بني قومه" (سويلم، 2010: 8). أدرك النورسي وزر كل هذه المحن فتصدى للإصلاح وحمل مسؤولية النهوض والتجديد انطلاقا من موطنه ومنه إلى الآفاق الأخرى في العالم الإسلامي متسلحا بمشروع استمد معالمه من الوحي ومن أمانة الاستخلاف في القرآن، مشروع يستهدف في المقام الأول واجب الحفاظ على الإيمان قويا في نفوس المسلمين وإعادة القرآن إلى ميدان الحياة ليكون المحور الذي تستلهم منه كل العزائم وتستمد منه كل مشاريع الإصلاح، فأمكنه أن يرسى قواعد منهج متميز يستهدف إصلاح الفرد و المجتمع سويا، فعلى الصعيد الفردي رأى النورسي وجوبا "على كل مؤمن أن يملك إيمانا قويا بهويته يمكنه من المقاومة والثبات تجاه هجوم الضلالة هجوما جماعيا (النورسي، 2011: 7) وعلى مستوى الجماعة حرص على تربية طلاب النور على هذا المنهج الإيماني القويم "حتى يصبح كل طالب نور بعقيدته المعنوية القوية كضابط شجاع يبعث مددا معنويا إلى قلوب أهل الإيمان فيبث فيهم روح الحماس والشجاعة" (النورسي، 2011: 7) فما هي دلالة العمل لغة وشرعا؟ وما هي خصوصية هذا المفهوم عند النورسي؟

(1-2) العمل: مفهومه وخصائصه عند سعيد النورسي

1) تعريف العمل لغة وشرعا:

لغة: جاء في اللسان "العمل المهنة والفعل والجمع أعمال. وأعمل فلان ذهنه في كذا وكذا إذا دبره بفهمه. وأعمل رأيه وألته ولسانه واستعمله: عمل به. ورجل عمول بمعنى رجل عمل، أي مطبوع على العمل" (ابن منظور، د ت: 3107-3109).

شرعا: جاء في المفردات "العمل هو كل فعل بقصد، فهو أخص من الفعل. والعمل يستعمل في الأعمال الصالحة والسنية قال تعالى "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات" (البقرة: 277) وقال عز وجل "ومن يعمل سوءا يجز به" (النساء: 123) وغيرها من الآيات" (الأصفهاني، 2011: 577).

مستخلص: بينت كل من الدلالة المعجمية والشرعية – الموجزة - أن "العمل" مهنة يؤديها بنو البشر في الحياة الدنيا ولها أهداف ومقاصد إيجابية أو سلبية يتعلق بها الجزاء الأخروي تصديقا لقوله تعالى "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" (الزلزلة: 7-8).

والعمل قيمة ذات أهمية من قيم الإسلام وهو يحتل من العقيدة الإسلامية منزلة كبيرة. فقد نوه القرآن الكريم بالعمل الصالح وجعله قرين الإيمان وثمرة من ثمراته في عديد الآيات (مثل ذلك ورد في الآية 15

الحجرات ذكر جملة من الأعمال بمقتضاها وصف المؤمنين بالصادقين. وما جاء في الآية 3/ الأنفال أيضا وغيرها من الآيات). كما فتح عمل الفساد ونهى عنه وتوعد سبحانه وتعالى المفسدين بمختلف صورهم (فساد العقيدة كما الفكر والسلوك). وقد ردت في القرآن الكريم ما يزيد عن خمسمائة آية تحدثت عن الفعل وعن العمل (بصيغ متعددة)، وهي آيات تتضمن أحكاماً شاملة للعمل: تصنيف الأعمال، مسؤولية العامل وعقوبته ومثوبته... وهذا إن دلّ على شيء فهو بيان قيمة العمل في خطاب الوحي قرآناً وكذا سنة، ففي الأثر النبوي أحاديث كثيرة حول العمل وعلاقته بالإيمان مثل قول النبي "الإيمان ما قر في القلب وصدقته العمل" وقوله أيضا "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأنها إمامة الأذى". هذه القيمة الشرعية للعمل انعكس أثرها في الفكر الإسلامي إذ مثّلت مسألة العمل وعلاقته بالإيمان مجال جدل كبير بين الفرق الإسلامية من جهة اعتباره شرط صحة أم شرط كمال للإيمان وأثيرت مسألة زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة (الحسنات) ونقصانه بالأعمال السيئة (المعاصي).

(ب) تعريف العمل الإيجابي من خلال رسائل النور:

مثّل العمل الإيجابي مشغلا مهمّا عند النورسي فكرا وممارسة. وقد انعكس ذلك في مضمون رسائل النور، إذ يدرك القارئ من خلالها حضورا متميزا لهذه المسألة تصريحا في السيرة الذاتية (النورسي، 2011: 538-532) وفي الملاحق تحت عنوان "الدرس الأخير حول العمل الإيجابي البناء" (النورسي، 2011: 406-400)، وتلميحا في ثنايا الرسائل كلها عندما يحذّر الأستاذ من آفات كثيرة مثل الفتنة والعداوة والحسد واليأس والعداوة والانحياز... ويعتبرها تحديات خطيرة تعيق إنجاز العمل الإيجابي فيدعو إلى وجوب تحصينه بجملة من القيم - الرهانات - شأن الإخلاص والأخوة والمحبة والتعاون والتساند والصبر... قيم تيسر القيام بهذه المهمة على الوجه الذي يضمن كسر صلابة المحن والمصائب والتمكّن من تحقيق مشروع العمل الإصلاحي، إصلاح إيمان الناس وإعادة الاعتبار للقرآن الكريم الدعامة الكبرى لرقى الأمة. فما هي طبيعة العمل الذي شغل الأستاذ طوال حياته والذي أوصى به لما بعد مماته؟ وما هو نطاق توظيفه؟

كانت حياة النورسي في مختلف محطاتها ومظاهرها (التدريس والمواعظ، الكتابة والتأليف، في المنافي والسجون في مستقرّه وترحلّه) ترجمة صادقة للعمل الإيجابي البناء، تنظيرا وتفعيلا. فقد آمن أن مهمته ورسالته الأساسية في هذه الدنيا هي العمل بما يعود بالفائدة على الناس وبما يكسبه شخصيا الرضي الإلهي والفوز في الآخرة ولم يكن ذلك مجرد رؤية فكرية فقد جعل كل حياته عنوانا متميزا لتجسيد العمل الإيجابي يشهد بذلك كل من عاصره أو تتلمذ له

آمن الأستاذ أنّه صاحب رسالة عظيمة ذات أهداف دقيقة تترجمها عبارته البليغة "إن غايته إصلاح الأسس التي يبني عليها الإيمان، فإذا أصبح الأساس صلبا قويا فلا يؤثّر فيه مؤثّر بعد حتى الزلازل" (النورسي، 2011: 589) فهو ينبّه إلى أن الإيمان الراسخ حصن منيع أمام "هجوم الضلالة". وحرصا منه

على مداومة الأعمال الإيجابية البتاءة التي تنفع العباد والبلاد، نصح الأستاذ وأرشد لمرحلة ما بعد مماته، إيماناً منه أن رسالة الإصلاح بالخدمة الإيمانية يجب أن تستمرّ بفضل جهود طلاب النور فألقى (آخر حياته) على مسامعهم درساً منهجياً بليغاً بيّن فيه قيمة العمل الإيجابي وأهميته ورهاناته وتحدياته وذلك على قاعدة "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين" فاستطاع أن "يكتسب البقاء المعنوي بعد موته" بفضل هذا الدرس القيم وغيره من الدروس الأخرى التي تضمنتها الرسائل.

ألقى الأستاذ النورسي هذا الدرس على طلبة النور قبل وفاته فيبين فيه وجوب "العمل الإيجابي البناء" ونبّه إلى أن مهمتهم في الحياة تتمثل في أداء هذا الجنس من العمل نظراً لدوره في تحقيق عالم أفضل، عالم يعمه الخير للإنسانية جمعاء فقال "إن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البناء" (النورسي، 2011: 532). وهي عبارة كرّرها مرات عدة في ثنايا الدرس، وفي تكرارها تأكيد على درجة إلزامها عند كل طالب منفرداً وفي نطاق الجماعة.

تضمن هذا الدرس تحديد أهداف العمل الإيجابي وهي "القيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي" ملتزماً وملزماً طلابه بتفعيل هذا العمل وهذه الخدمة "ضمن نطاق الرضا الإلهي دون التدخل بما هو موكول أمره إلى الله" وكان بصريح ذلك وينصح لطلابه باستمرار قائلاً "إخواني إن وظيفتنا هي خدمة الإيمان والقرآن الكريم بإخلاص تام أما توفيقنا ونجاحنا في العمل وإقبال الناس إلينا ودفع المعارضين عنّا، فهو موكول إلى الله سبحانه" (النورسي، 2011: 594) وبنيتهم إلى مداومة العمل والخدمة للإيمان وللقرآن وعدم الانهزام أبداً "حتى لو غلبنا فلا ينقصنا هذا شيئاً من قوتنا المعنوية ولا يقعدنا عن خدمتنا" (النورسي، السيرة الذاتية، 2011: 594). ويعتبر النورسي هذا العمل وهذه الخدمة "جهاداً معنوياً له وطلّاب النور ضد التيار الجارف، وهو جهاد عظيم الثواب، فيه قيس من جهاد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم" (النورسي، 2011: 161). إنه جهاد في سبيل الله إتباعاً لأمره سبحانه، فهو يلتزم أداء ما عليه من واجب أما النصر والهزيمة فإنما هي من تقدير الله سبحانه. فغاية العمل الإيجابي عند الأستاذ ليس تحقيق المصلحة الشخصية و الظفر بملذات الدنيا. وعندما عرض له سؤال "لم لا تكوّن علاقة وتمدّ وشانج ارتباط مع التيارات الجارية داخل البلاد وخارجها فأكثر ذلك لأن" الحقائق الإيمانية والخدمة النورية المقدّسة تأتي أن تكون وسيلة لأي شيء كان في الكون ولا يمكن أن تكون لها غاية إلا رضا الله سبحانه" (النورسي، 2011: 414)، وهذا خلافاً لما كان الكثير في زمانه يفعلونه من الذين يجعلون دينهم وأعمالهم الأخروية وسائل للمسلك الدنيوي بدل الاستجابة للأوامر الإلهية والرغبة في "التوجه من عالم التغيير والفناء إلى عالم النور والبقاء والسياحة الممتعة في العوالم النورانية للصانع الحكيم، وهي عوالم أجمل من الدنيا وأزهى" (النورسي، 2013: 358)

حدد هذا الدرس جنس العمل المطلوب إنجازَه، بصفتين دقيقتين دلالة وأثرا، إنهما صفتا –الإيجابية – وصفة –البناء- ومزيديا في الإيضاح وعملا بقانون "الضدّية" – العبارة للأستاذ-أنكر الأستاذ العمل السيئ ودعا إلى عدم السعي فيه بقوله " ليست وظيفتنا السعي للعمل السلبي الهدام " فقد قرن النورسي بين جنس العمل وثمرته فالعمل الإيجابي ثمرته "البناء " بناء الإيمان الخالص لوجه الله ، الذي ينعكس في مظاهر سلوكية حسنة تثمر الخير والنفعة ، كما يتجلى في الفكر، فكر التدبّر من أجل تجديد بعثة الرقي الحضاري للأمم .وهذا خلافا للعمل السلبي الذي عاقبته "الهدم" ، هدم القيم ، هدم الإيمان ، ويتجلى ذلك في مظاهر من الجهل والتخلف وضعف عقيدة التوحيد أو تشوّهها في حياة بني قومه أمام إغراءات المدنية الحديثة الخداعة التي جعلت تجذب الإنسان نحو الاستبداد والطغيان حتى أخذته الغفلة عن دينه الذي هو عهدة أمره وعن تدبّر هذا الكتاب العزيز.

جاء تعريف النورسي للعمل الإيجابي البناء دقيقا فمن أين استلهم الأستاذ هذه الرؤية المتكاملة في العمل التي تربط التصوّر بالممارسة؟

(ج) تأصيل المفهوم: "العمل الإيجابي البناء"

لما كان القرآن الكريم يمثل في فكر النورسي " الترجمة الأزلية ، والترجمان الأبدي، وشمس عالم الإسلام المعنوي وأساسه وهندسته ... " (النورسي، 2012: 420)، ولما كان الأستاذ يعتبر نفسه "تلميذ القرآن " ، كما يعتبر أن "أهل الإيمان متعلمون على مائدته خلافا لأهل الكفر والطغيان الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشيطان" (النورسي، 2012: 131)، لما كان الأستاذ على قدر كبير من التأصيل القرآني ، فقد استلهم كل ما في الخطاب الإلهي من حثّ على العمل ومن دعوة للعمل الصالح –البناء- باعتباره سنة الوجود والخاصية الإنسانية المثلى التي يتأهل بها الكائن البشري لحمل أمانة الاستخلاف التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها مشفقين منها وحملها الإنسان ، وما جوهر الاستخلاف إن لم يكن عملا ببناء وتعميرا؟.

تأمل الأستاذ النورسي تجربة القرآن الكريم في حياة المسلمين الأولى ورأى أنه "قد بدّل الحياة الاجتماعية تبديلا هائلا، نورّ الأفاق وملأها بالسعادة والحقائق وأحدث انقلابا عظيما سواء في نفوس البشر وقلوبهم أو في أرواحهم وعقولهم أو في حياتهم الشخصية والاجتماعية... ربّى الناس وأزكى نفوسهم وصقّى قلوبهم ومنح الأرواح انكشافا ورقيا والعقول استقامة ونورا " (النورسي، 2021: 165) وذلك بفضل الإيمان الصادق الذي قاد النبي وصحابته الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى " إفراغ الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل مع الاستعانة بالله وحده في توفيقه إلى إتمامه . وهذا المنهج قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم". وتأسيا بتجربة السلف الصالح استند النورسي إلى القرآن الكريم مستوحيا طريقته في إصلاح الفرد والمجتمع ، إذ اعتبره سر سعادة البشر "فهو كالماء والضيء للإنسانية الكبرى

...وهو المرشد المهدي إلى ما يسوقها إلى السعادة " (النورسي، 2012: 421) بفضل "ما تلقّنه حكمته من تربية الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية" (النورسي، 2012: 139)، لأجل ذلك التزم الأستاذ "شدّ نفسه دائما إلى وصايا القرآن وأوامره وعظاته حتى يظلّ المجتمع الإنساني صاعدا في طريقين من التقدم: طريق التقدم في المعارف والعلوم وأسباب المنعة والقوة وطريق التقدم على سُلّم الأخلاق و القيم الإنسانية الرفيعة " (صالح، 2011: 27). كما اقتدى بسيرة الرسول "أكمل إنسان في الوجود وأعظم من يقود إلى الخير" (النورسي، 2021: 157) الذي قاد البشرية إلى النور خروجا بها من ظلمات الجهل والضلالة والكفر بصبر جلد في وجه المحن والبلايا.

2-2) العمل الإيجابي، التحديات والرهانات

ألزم الأستاذ النورسي نفسه وطلابه امتثال الأمر الإلهي "وقل اعملوا"، فجعل العمل الإيجابي ركيزة مشروعه في الإصلاح وحرص على أن يهيئ له من الأسباب ما يجعله بناءً مثمرا يحقّق المقاصد الإلهية الجليلة. فدعا إلى جملة من المقومات (الأخوة، التساند والمحبة...)، قدّر أنّها بمثابة المحصنات الأخلاقية للعمل الإيجابي فضلا عن كونها أوامر شرعية تحقق أداء العمل بإخلاص تام، . وبالفدر نفسه نَبّه إلى آفات خطيرة تحول دون تحقيق ثمرات العمل الإيجابي وهي بالأساس أمراض النفس البشرية كالبغضاء والحسد ... وهي من النواهي الشرعية.

1) موانع العمل الإيجابي:

حدّر الأستاذ من آفات عديدة اعتبرها مثبّطات العمل الإيجابي وهي تلك الأمراض التي تصيب النفس البشرية في حال غفلتها الإيمانية وقد أحكم أساليب تبليغها حتى تأتي أكلها في النفوس فاستعمل الموعظة والنصح أحيانا والإلزام أحيانا منطلقا من نفسه "لأن من عجز عن إصلاح نفسه فهو عن غيرها أعجز " (النورسي، 2012: 297). أحيانا أخرى يذكّر بالنواهي الشرعية أو بالشخص المعنوي لطلاب النور بما يضمن تقوية عزائمهم وشحن همهم ألا تضعف. وأحيانا يضرب الأمثال عسى أن "ينقذ من كان له مسكة من عقل من أهل السفاهة وأرباب الضلال من التمادي في غيهم " (النورسي، 2011: 455). ومن أخطر تلك الموانع:

* التقليد: خاطب النورسي نفسه بخمس تنبيهات (شقائها، شرهها، جزعها، طيشها، و غرامها بالدنيا) وأمرها قائلا "أيتها النفس، لا تقلدي أهل الدنيا ولا سيمّا أهل السفاهة وأهل الكفر خاصة منخدعة بزينتهم الظاهرية الصورية ولذاذهم الخادعة غير المشروعة لأنك بالتقليد تتردّين كثيرا جدا، بل لن تكوني حتى حيوانا أيضا " (النورسي، 2012: 414) ومن مظاهر ذلك "الانخداع في تقليد بعض الدول الأوروبية وموجبات المدنية " (النورسي، 2011: 533).

* الغرور والأناية: حذر الأستاذ من هذه الأفة فذكر أن "طلاب النور الحقيقيين قد أذابوا أنانيتهم في الشخص المعنوي والحوض المشترك للجماعة فهم لا يتزعزعون بإذن الله في غمرة هذه العواصف والأعاصير " (النورسي، 2021: 355) وذلك دعوة "لأهل الحق ترك الغرور والأناية وقصد المنافع، حتى لو كان في طريق مشروع " (النورسي، 2021: 355) فإن "ترك غرور النفس وحظوظها - هو أحد الشروط التي تحقّق - إنقاذ الحق من صولة الباطل " (النورسي، 2011: 210).

* نوازع الحسد: نبّه الأستاذ إلى أن دفع الموانع وإزالتها والظفر بالإخلاص في الخدمة الإيمانية يقتضي من طلاب النور الالتزام "بعدم إثارة نوازع الحسد بالتفاخر والاستعلاء وعدم انتقاد إخوانهم العاملين في الخدمة القرآنية" (النورسي، 2011: 222)، معتبرا أن "الحسد الناشئ من المنافع المادية يفسد الإخلاص تدريجيا، بل يشوّه نتائج العمل، بل يفوّت حتى الموانع المادية أيضا" (النورسي، 2011: 227) لذلك حرص الأستاذ على جعل "ترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة " (النورسي، 2011: 222) من الشروط المحققة لإنقاذ الحق من صولة الباطل .

ب) رهانات العمل الإيجابي:

أدرك الأستاذ " أن الخدمة الإيمانية في هذا الوقت تجابه بالوف المخربين مما يلزم أن تكون في صفّها منات الألوف من المعمّرين " (النورسي، 2011: 417) يواجهون هذه الأفات التي تمنع العمل الإيجابي وتعيق تحقيق ثمراته، فبيّن في اللمعة العاشرة أن كرامة العمل للقرآن الكريم (الخدمة المقدسة) ثلاثة أنواع أولها تهيئة وسائل العمل والخدمة وسوق العاملين فيها إلى الخدمة. والثاني ردّ الموانع من حولها ودفع الأضرار والثالث أن " العاملين المخلصين في الخدمة القرآنية حينما يعترّيبهم الفتور والإهمال في العمل، فإنهم يتلقون لكمة ذات رافة وعطف - تحذيرا وتنبيها من الله - فينتبهون من غفلتهم ويسرعون بجدّ للخدمة مرة أخرى " (النورسي، 2011: 60-61) وأشار الأستاذ أن في حياته و حياة إخوانه الميامين عديد الحوادث تربو على المائة لكنه اكتفى بذكر ما يقرب من عشرين حادثة، عشرة ونيف منهم تلقوا لكمة حنان رؤوفة بينما تلقى حوالي سبعة منهم لكمة زجر عنيفة " . وفي اللمعة العشرين انطلق من الآية الكريمة "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ فأبعد الله مخلصا له الدين، ألا الله الدين الخالص " (الزمر: 2-3) وصرّح "إنّي تلقيت درس التقلّد بالإخلاص التام من القرآن الكريم " (النورسي، 2011: 533) فدعا إلى وجوب تحقيق :

* الإخلاص : لأنه المرهم الناجع الشافي للمرض العضال عندما "تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة و يتبدّل الوفاق نفاقا والاتفاق اختلافا وتفرّقا " (النورسي، 2011: 208). فجعل له مواصفات فهو "إنما يعرف بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامّة أيا كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر" (النورسي،

2011: 211) وهو تضادّه موانع ثلاثة أخطرها الحسد لذلك وجب تحصينه بشروط أهمّها " العمل الإيجابي البناء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب ، لا يرد إلى تفكيره عداء الآخرين أو التهوين من شأنهم ، بل عليه تحري روابط الأخوة الكثيرة التي تكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفق تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام واتخاذ دستور الإنصاف دليلا مرشدا " (النورسي، 2011: 209) هذه الشروط مع ترك الموانع من شأنها أن تجعل الإنسان يوفي وظيفته (وهي العمل الإيجابي البناء) حق الوفاء ويؤديها على الوجه المطلوب " (النورسي، 2011: 210) وحرصا على الظفر بالإخلاص والحفاظ عليه ألزم طلابه باتخاذ أربعة دساتير رائدهم في الخدمة القرآنية المقدّسة أولها وأهمّها "ابتغاء مرضاة الله في العمل، فينبغي جعل رضا الله وحده دون سواه القصد الأساس في خدمة الإيمان والقرآن" (النورسي، 2011: 222) أما الثاني فيخص موانع الحسد والثالث تذكير بأن "القوة والإخلاص في الحق والرابع "هو الافتخار شاكرين بمزايا الإخوان وتصورها في الأنفس" هكذا يتمكن الذين دخلوا ميدان خدمة القرآن الكريم المقدّسة من النجاة من الهاوية وإمداد النور والإخلاص والإيمان قوّة". وقد أدرك الأستاذ أن موانع تحقق الإخلاص كثيرة لذلك رغّب في " رابطة الموت" و رهّب منها "لأنها أهم سبب لكسب الإخلاص وأعظم وسيلة مؤثرة للمحافظة عليه، لأنها تتفر من الرياء وتجعل المرابط معه يحرز الإخلاص، إذ تخلّصه من دسائس النفس الأمارة وذلك بتذكره موته وبملاحظة فناء الدنيا " (النورسي، 2011: 225-226) ، فألح في نصح الإنسان "إن كنت تريد مزيدا من الثواب الأخروي فاستمسك بالإخلاص واتخذ أساسا لعملك واجعل مرضاة الله وحدها الهدف والغاية في عملك " (النورسي، 2011: 212).

* التساند والتعاون تحت راية الأخوة:

إن الناس متى تعاونوا متحابين في الله عملا بآيات القرآن ومنها "إنّما المؤمنون إخوة" (الحجرات: 10) و"تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " (المائدة: 2) فإنهم يظفرون بالتوفيق الإلهي ولذلك صرح النورسي أنه شخصيا "ظفر بهوية الانتساب الإيماني استنادا واعتمادا على قوة عظيمة وقدرة مطلقة فاعليتها غير محدودة (وأضاف) ...هكذا منح سبحانه الإنسان جامعية من جهات كثيرة جدا وهب له من الاستعداد ما يجعله مرآة كاملة لأحاديثه وصمدا نيته " (النورسي، 2011: 71-73) كما أمن "أن دستور الحياة هو التعاون دون الجدل " (النورسي، 2011: 344)، لأن الجدل والصراع بنظره دستور ظالم (الملاحق) متى انهمك به أهل الدنيا خارج أطر آدابه يورث البغضاء والخلاف الشؤم و"يضحي في سبيله بالمقدسات الدينية حصولا على حطام الدنيا". وحاجة المسلمين في عصره إلى الأخذ بقيم القرآن في الأخوة والأمن ومحبة بعضهم بعضا والتعاون والتساند واجتناب الاختلاف الشؤم فوق كل حاجة لذلك وصفه الأستاذ "بالمرض الفتاك الذي ألم بأهل الحق فبين إن سبيلهم للتخلص منه "هو اتخاذ النهي الإلهي في الآية

الكريمة "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" – (الأنفال: 46) واتخاذ الأمر الإلهي في الآية الكريمة "وتعاونوا على البر والتقوى (المائدة: 2) دستورين للعمل في الحياة الاجتماعية" (النورسي، 2011: 215) ولذلك أدرك الأستاذ الحاجة إلى الأخذ بقيم القرآن الكريم المحقق لإخلاص الخدمة الإيمانية المقدسة فصرح أنهم "مضطرون إلى الاتحاد والتساند التام الذي يهيئ قوة معنوية" (النورسي، 2011: 223) بمقدار هائل. كما نصح بالمحبة والصبر والجد والاتفاق المثمر وأوصى "بالتقوى والعمل الصالح للذين هما أعظم أساسين في نظر القرآن الكريم بعد الإيمان. فالتقوى هي ترك المحظور واجتتاب الذنوب وبالسيئات، والعمل الصالح هو فعل المأمور لكسب الخيرات" (النورسي، 2011: 160).

الخاتمة:

لعمل الإيجابي البناء دلالة متميزة في رسائل النور لأن الأستاذ النورسي قد جعله أداة للخدمة الإيمانية المقدسة. وسعياً لربط التصور بالممارسة وتهيئة أسباب التمكن من ذلك، وحذر من موانعه، واستناداً لقانون الضدية دعا إلى جملة من الشروط والمقومات المحصنة له أهمها الإخلاص التام و"اتخاذ التقوى أساساً في الأعمال كلها والتحرك وفتحها أمام تيار الدمار الرهيب المهاجم والآثام المحيطة" (النورسي، 2011: 160) بما يحقق الرضا الإلهي الغاية المنتهى للإنسان مصداقاً لقوله تعالى "أن اعبدون". وبالنظر إلى أهمية هذه الفلسفة النورية في الإصلاح، توصي هذه الورقة: أنه من واجب المؤسسات البحثية الانكباب على دراسة آراء الرجل في عمقها، والتعريف بها من خلال نشر المقالات وإعداد الندوات وتأليف الكتب.

المصادر والمراجع

1. النورسي، سيرة ذاتية، ترجمة إحسان قاسم صالح، سوزلر للنشر، ط6، سنة 2011.
2. النورسي، صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم صالح، سوزلر للنشر، ط6، سنة 2011.
3. النورسي، الملاحق، ترجمة إحسان قاسم صالح، سوزلر للنشر، ط6، سنة 2011.
4. سعيد النورسي، ذو الفقار، ترجمة الخيرات، اسطنبول، دار الخيرات للنشر، - 2009م.
5. بديع الزمان سعيد النورسي، عصا موسى، ترجمة الخيرات، اسطنبول، دار الخيرات للنشر 2009م.
6. بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة الخيرات، اسطنبول، دار الخيرات للنشر، 2012م.
7. بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة الخيرات، اسطنبول، دار الخيرات للنشر 2013م.
8. بديع الزمان سعيد النورسي، اللغات، ترجمة الخيرات، اسطنبول، دار الخيرات للنشر 2010م.

9. ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، د.ت.
10. الأصفهاني (الراغب)، مفردات ألفاظ القرآن، تح صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، ط1، 2011.
11. جدعان (فهمي)، تحرير الإسلام ورسائل زمن التحولات، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2014.
12. سويلم (إبراهيم)، بديع الزمان وتحديات عصره، منشورات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 2010.
13. شاهين (نجم الدين)، الشهود الأواخر، شهادات ومشاهدات عن بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة مأمون رشيد عاكف، دار سوزلر للنشر، مصر، ط1، 2012.
14. صالح (إحسان قاسم) وآخرون، سعيد النورسي عملاق الفكر الديني في العصر الحديث، دار النيل، للطباعة والنشر، ط1، 2011.